ثورات إخوته ضده

كانت ظروفًا حرجة تلك التي تولّى فيها هشام بن عبد الرحمن الداخل عرش الأندلس، فلم يكد يجلس على العرش حتى فوجئ بعداء أخويه له: سليمان وعبد الله، فأما سليمان فكان أكبر إخوته؛ لهذا كان تطلعه للإمارة، وكانت نظرته أن يكون هو وليّ العهد على عادة الأمويين في المشرق، وأما عبد الله فقد كانت الإمارة في يده، يوم سلّمها له أبوه على أن يُعطيها لأول قادم إلى قرطبة، وقد فعل، وتاقت نفسه للإمارة، فانضم إلى أخيه سليمان، ووقفا من أخيهما موقفًا سلبيًا، فلم يتركاه ينهض بشؤون الإمارة، بل سارعا في تأليب الناس عليه، وإثارة الثورات ضده في كل مكان، وطلب الأمر جهارًا نهارًا دون مواربة، وهذا الموقف يُذكرنا بما تعرّض له والدهما من ألم نفسي؛ إذ لم يجد بدًا من قتل ابن أخيه المغيرة بن الوليد، ونفى أخاه الوليد وأسرته إلى المغرب، جلس عبد الرحمن مطرق الرأس حزينًا، ثم رفع رأسه وقال: «ما عجبي إلاّ من هؤلاء القوم (يقصد أقاربه وابن أخيه) سعينا فيما يضعهم في مهاد الأمان..... حتى إذا بلغنا مطلوبنا .... أقبلوا علينا بالسيوف»[٢].

وها هم أبناؤه يُعيدون الكرّة، ويرفعون السيوف في وجوه بعضهم البعض، فأما سليمان الذي كان يجاهر بعداوة أخيه هشام، فقد أقام في طليطلة، حيث توفّرت له أسباب الأمن، وتهيّأت له ظروف الثورة؛ فانتهز الفرصة، وأعلن خروجه عن طاعة أخيه، ورفع السيف في وجهه.

وأما عبد الله فقد خرج من قرطبة على أن يقيم بماردة، ولكنه لم يلبث أن ينضم إلى أخيه سليمان، سواء استدعاه سليمان، أم ذهب هو بنفسه، ويتحالفا ضد هشام، ويُعلنا الثورة ضده.

---

(١) أوردنا النص من قبل عن «نفح الطيب» للمقري (جـ١ ص١٥٥).

وقد بلغ الأمر إلى تحدي سليمان أمر الأمير، ذلك أن سليمان حاول جاهداً أن يستميل وزير طليطلة غالب بن تمّام الثقفي؛ ليصبح مستشاره الخاص، ولكن غالبًا رفض هذا الأمر، فقد كان يرى أن ولاءه لا يكون إلاّ لأمير قرطبة، فغضب سليمان لذلك، فقبض عليه وألقاه في السجن.

وعلم الأمير هشام بتصرف أخيه، فكتب إلى سليمان أنه علم بما جرى للوزير غالب، وأنه - محافظةً على رجال الدولة المخلصين - يجب أن يعرف ماذا حصل بالتفصيل، وبدون إبطاء.

ولما وصل رسول هشام حاملاً رسالته إلى سليمان، غضب سليمان غضبًا شديداً، وأرسل وهو في غضبه، فاحضر غالبًا من السجن، وأمر به فصُلِبَ. ثم قال للرسول: «قل لسيدك يتركنا نحكم في مقاطعتنا الصغيرة هذه؛ فإن هذا لا يعدل الظلم الفادح الذي أنزله بنا».

وزاد على ذلك، فقال للرسول: «وقُصَّ عليه أيضًا ما رأيت من قيمة أوامره لنا»[١].

لما عاد رسول هشام، وبلّغه ما صدر من أخيه سليمان، قرر أن يخرج إلى طليطلة بجيش قويّ؛ ليؤدب أخويه سليمان وعبد الله، وكتب هشام إلى كل الولاة باعتبار أخويه خارجان على الدولة، هما وكل من يناصرهما أو يدعو لهما، وكتب بضرورة إغلاق البلاد في وجهيهما، وبعدم إيوائهما، و أعدّ جيشًا قويًا قوامه عشرون ألف فارس، واستعد للخروج إلى طليطلة[٢].

وأما سليمان، فإنه قد علم بالإجراءات التي اتخذها هشام ضده، فصال وجال، وأخذ البيعة لنفسه في طليطلة وما جاورها، وجمع حوالي خمسة عشر

(١) «الأمويون في الأندلس الأول» (ص١٥١) أحمد إبراهيم الشعراوي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

ألف جندي، وخرج بهم مسرعًا يريد انتهاز الفرصة؛ ليصل إلى قرطبة، وقد خرج أخوه هشام منها؛ لعلّه يدخل العاصمة وهي خالية، فيستقر فيها ويُبايعه الناس، وقد ترك طليطلة لابنه وأخيه عبد الله ليدافعوا عنها، واصل سليمان السير، وكلُّه أمل أن يُدرك قرطبة خاوية ليس عليها أمير، ولكنه لم يكد يصل إلى جيَّان، ويقترب من حصن بلْج، حتى وجد جيش هشام أمامه، وتقع بينهما معركة فاصلة، يُهزم فيها سليمان، ويفرّ عائدًا إلى طليطلة.

وفي سنة (١٧٣هـ - ٧٨٩م) جهّز هشام جيشه، وخرج إلى أخيه سليمان بطليطلة؛ فحاصرها هشام حصارًا شديدًا، مما اضطر سليمان أن يخرج متخفيًا، وخلّف أخاه عبد الله وابنه داخل المدينة، واحتل بشَقُنده، وعندئذ خرج إليه أهل قرطبة يدفعونه عنها، وبلغ هشام الخبر؛ فاطمأن لدفاع أهل قرطبة عنها، وبعث ابنه عبد الملك يتتبعه، فلما اقترب منه فرَّ سليمان هاربًا، وخرج إلى جهة ماردة، فتصدى له عاملها حدير المعروف بالمذبوح، وهزمه، وظلّ هشام يحاصر طليطلة شهرين وأيامًا، ثم قفل عنها راجعًا[١].

وفي سنة (١٧٤هـ - ٧٩٠م) حضر عبد الله البَلَنسيّ إلى أخيه هشام من غير عهد ولا وعد، فأمّنه هشام، وأنزله عند ابنه الحكم[٢].

وقد وعد هشام أن يعامل سليمان معاملة عبد الله إن هو عاد وأقلع عن الفتنة التي أثارها، وقد أمّن هشام أهل طليطلة، ومنحهم العفو حين دخلوا في طاعته.

وفي السنة نفسها، وبعد استقرار الأوضاع في طليطلة، وجه الأمير هشام جيشًا كثيفًا إلى تدمير بقياد ابنه الحكم، ويساعده القائدان العظيمان: شُهيد بن عيسى، وتمّام بن علقمة، وكان سليمان مقيمًا بتدمير، فحاربوه، وأجبروه على

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) «البيان المغرب» (٢/٦٦).

الفرار إلى إحدى قبائل البربر، في مرتفعات بلنسية. يقول ابن خلدن: وهرب سليمان إلى جبال بلنسية، فاعتصم بها[١].

ثم طلب سليمان من أخيه هشام العبور إلى عدوة البربر بأهله وولده، فأجازه هشام، وأعطاه ستين ألف دينار على تركة أبيه[٢].

ويقول نفس المصدر التاريخي[٣]: «وكان سليمان قد حصَلَ عليه في بعض ثغور تدمير، فطلب سليمان الأمان؛ فاشترط عليه الأمير هشام الخروج عن الأندلس، ويعطيه ستين ألف دينار، فركب سليمان البحر بأهله وولده، واحتل بلاد البربر، فكفاه الله أمر أخوته»[٤].

واستأذن عبد الله من الأمير هشام؛ لكي يغادر الأندلس، ويذهب إلى إفريقية، ويعيش مع أخيه سليمان، وهكذا تأتي (١٧٥هـ - ٧٩١م) وقد ارتاح الأمير هشام من المشكلة التي شكّلت خطراً على دولته[٥].

وانتهت ثورة أخويه سليمان وعبد الله بأقل خسائر تذكر؛ فلم يلجأ إلى إيذاء أحد منهما، بل أنه أعطاهما الأمان عندما ملك زمام كل منهما.

(١) ابن خلدون (٤/١٥٩).

(٢) ابن عذارى في «البيان المغرب» (٢/٦٢).

(٣) ابن عذارى المصدر السابق.

(٤) «البيان المغرب» (٢/٦٢).

(٥) «الأمويون أمراء الأندلس الأول» (ص١٥١).

هشام والثورات الداخلية

أولاً - ثورة سعيد بن الحسين الأنصاري بطرطوشة:

كان سعيد قد التجأ إلى طرطوشة منذ مصرع أبيه الحسين بن يحيى الأنصاري، والتفَّ حوله اليمنية، وقام بثورة عامة في سنة (١٧٢هـ - ٧٨٨م) بطرطوشة، فدعا اليمنيين إلى الثورة، فانضم إليه خلق كثير، وقد اعتقد الثوار في الشمال أنه بموت عبد الرحمن الداخل قد أُتيحت لهم الفرصة لكي يشعلوها ثورة من جديد؛ فخرج بطرطوشة الوالي سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري، وثورة سعيد هذه بدأت منذ عُيّن الأمير هشام واليًا جديداً على مدينة طرطوشة، ورفض سعيد أن يُسلم المدينة لواليها الجديد يوسف العبسي، وقام بالثورة ضد الأمير هشام، واستطاع موسى بن فُرتون بمساعدة المضرية، استطاع أن يهزم الثوار والاستيلاء على سرقسطة[١].

وحينئذ خرج عليه مولى للحسين بن يحيى الأنصاري في جمع كثير، فاقتتلا قتالاً شديداً، حتى قيل أن موسى بن فرتون قُتل في هذه المعركة.

وقد انتهت هذه المعركة بمقتل سعيد بن الحسين في (١٧٤هـ - ٧٩٠م) على يد والي بلنسية أبو عثمان، فقد تظاهر سعيد بن الحسين بالانسحاب، وتتبعته قوات بلنسية، وكان قد نصب لها كميناً، فقتل منها عدداً كبيراً، وكان موسى بن فرتون في عداد القتلى، وحينما علم الأمير هشام بذلك أصدر أوامره إلى والي غرناطة ووالي مرسية أن يرسلا قواتهما إلى بلنسية؛ ليكونا تحت قيادة أبي عثمان والي بلنسية الجديد الذي قاد الحملة ضد الثوار، فقتل سعيد بن الحسين، وقضى على الثورة نهائياً.

---

(١) المصدر السابق (ص١٥٦) .

ثانيًا - ثورة مطروح بن سليمان بن يقظان:

كان سليمان بن يقظان حليفًا لملك الفرنج شارلمان، ضد عبد الرحمن الداخل، ولما استتب الأمر له زحف ليحتل سرقسطة، وكانت قوات الأمير هشام قد خلصتها من يد الثوار، كذلك احتل وَشْقة والثغر كله.

وفي عام (١٧٥هـ - ٧٩١م) جهّز الأمير هشام جيشًا بقيادة أبي عثمان عبيد الله ابن عثمان، وأمره أن يزحف عل سرقسطة حيث يوجد بها مطروح ابن سليمان، فحاصرها عبيد الله، ثم احتل مدينة طرشونة، وألح على سرقسطة بالحصار، وضيَّق عليها الخناق، حتى ضاق ذرع أهل سرقسطة، وضجوا من تمادي الحصار، وفكروا قبل أن يسلّموا المدينة، ولكن مطروحًا كان يعارض تسليم المدينة، واستبدّ برأيه، وصبر عليه أصحابه، ثم أضمروا له عداءً شديداً، بسبب استبداده برأيه، وإكراههم على غير ما يرغبون.

وفي يوم من الأيام خرج مطروح ليتصيد، وخرج معه صاحباه: عمرو بن يوسف وابن صلتان، فلما أرسل بازيه على طائر، ونزل على الصيد تعاوراه بسيفيهما حتى قتلاه، واحتزا رأسه، وتقدما به إلى أبي عثمان وهو بطرسونة، فتحرك إلى سرقسطة، فلم يمتنع عليه أحد من أهلها، ودخل المدينة، ونزلها، وبعث برأس مطروح إلى الأمير هشام[1].

ثالثًا - ثورة أبو الحجاج بهلول:

انتهز أبو الحجاج فرصة خلاف أبناء عبد الرحمن الداخل هشام وسليمان وعبد الله، و قام هو داعيًا للثورة لنفسه، فاستولى على سرقسطة، وسرعان ما دانت له، وانضمّ إليه الحكام في برشلونة، ووشقة، ووصل الخبر إلى أبي عثمان، حاكم بلنسية، فأعدّ جيشًا كثيفًا من الفرسان والمشاة، وخرج إلى الثوار، واشتبك معهم في معارك عدة، خلّص بها المدن التي احتلوها.

---

(١) «البيان المغرب» (جـ٢ ص٦٣).

بعد ذلك شعر أبو عثمان أن الناس في هذه المنطقة قد ملّوا الثورات، وكرهوا الفتن والاضطرابات، فانقلبوا على الثوار، وحاربوهم، وأعلنوا الولاء للحاكم الشرعي هشام، فكتب أبو عثمان بذلك إلى الأمير هشام، ففرح هشام بذلك، وأمر أبا عثمان أن يبقى في منطقة الحدود ليؤمّنها، وينتظر المدد الذي سيأتيه من قبَل الأمير هشام؛ حتى يستطيع استعادة البلاد التي فقدها المسلمون في تلك الناحية.

رابعًا - ثورة تاكُرُنَّا:

اضطرب تاكُرنا في عام (١٧٨هـ - ٧٩٤م) بالثورة، وخرج البربر في فتنة عمياء، وأغاروا على الناس، فقتلوا من المسلمين وسبوا كثيرًا، وبعث الأمير هشام، فحذرهم وأنذرهم عاقبة ثورتهم، ولكنهم لم يرتدعوا، فبعث إليهم جيشه، فقتل أكثرهم، وفرّ عدد كبير منهم إلى طلبيرة وبَرْجيلة، وراحوا يعيثون في الأرض، وخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، فبعث الأمير إليهم جيشًا.

وظلت تاكرنا سبع سنوات بلادًا خالية قفرًا، بعد أن أعمل فيهم قائدَهُ عبد القادر بن إبان القتل، حتى أبادهم قتلاً وسبيًا.

الحرب ضد الفرنج (نصارى الشمال):

كان نصارى الشمال، منذ اشتدّ ساعدهم، يُكثرون الإغارة على البلاد الإسلامية والعبث فيها، ويشتد هذا العبث والعدوان كلما اضطرمت الأندلس بالفتن الداخلية، وشغلت حكومة قرطبة عن حماية الأطراف النائية، وفي المقابل أشاع الناس في أوائل حكم الأمير هشام بن عبد الرحمن أن الأمير لا يُقاتل إلاّ أهل دينه؛ وذلك لكثرة الفتن التي حدثت في عهده، سواء من إخوانه، أو من الخارجين عليه، وقد استغرق ذلك فترة طويلة من أوائل سِني حكمه، أي من

(١٧٢هـ - ٧٨٨م) إلى (١٧٥هـ - ٧٩١م)، فقال الناس لا خير في أمير لا يُحارب إلاّ بني دينه من المسلمين[١].

وكان الفرنج جريًا على سياستهم المأثورة، يُشجعون النصارى من البشكنس والجلالقة على التحرش بالمملكة الإسلامية.

أما هشام فبالإضافة إلى ما قيل عنه، فإنه كان كابيه يُقدّر خطورة هذه الدسائس الفرنجية، وتحدوه من جهة أخرى نزعة قوية إلى الجهاد والغزو، فما كاد ينتهي من القضاء على الثورة الداخلية، حتّى سيَّر إلى الشمال جيشًا قويًا من أربعين ألف مقاتل بقيادة عبيد الله بن عثمان، فاخترق ألبة والقلاع (قشتالة القديمة) واجتاح جليقية، وهزم الجلالقة بقيادة ملكهم برمودو (أوبرمند) وحلفاءهم البشكنس، وفرَّق جموعهم سنة (١٧٥هـ - ٧٩١م)، وعاد إلى قرطبة مثقلاً بالغنائم والسبي، ولم يمضِ قليل على ذلك حتى سارت إلى جليقية حملة أخرى بقيادة يوسف بن بخت، وهزم برمودو مرة أخرى، وقتلت جموع كبيرة من النصارى، وعلى أثر ذلك تنازل برمودو عن العرش لألفونسو الثاني ولد فرديلا، وأمير جليقية الشرقية، ولجأ إلى عزلة الدير.

وفي العام التالي سنة (١٧٦هـ - ٧٩٢م) تأهب هشام لمحاربة الفرنج، واستئناف الغزو والجهاد، فسيّر إلى الشمال جيشًا كثيفًا، بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث - وهو حينئذ مغيث الرومي فاتح قرطبة - فعبر البرنية من ناحية قطلونية، واستولى أبناء سيرة على مدينة جيرونة (جرنده) الحصينة في قاصية شمال شرق أسبانيا، وكان الفرنج قد استولوا عليها منذ سنة (٧٨٥م) من يد مطروح بن سليمان، وكان حكام هذه الأنحاء التي لبثت تضطرم بالثورة على حكومة قرطبة، منذ غزوة شارلمان الأولى لأسبانيا، وقد اشتغلوا بما في أيديهم من

(١) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص٢١٦).

المدن، وجنحوا إلى محالفة الفرنج جيرانهم من الشمال، والتماس حمايتهم، ومن ذلك أن أبا ثور صاحب مدينة وشقة، والذي سبق ذكره في معركة باب الشزري (ترنسڤال) بعث رسله إلى تولوشة عاصمة أكوتين يطلب التحالف مع ملكها الدوق لويس ابن شارلمان (٧٩٠م)[١].

واستولى الحاجب عبد الملك بعد ذلك على عدد آخر من المعاقل والحصون، ثم نفذ إلى سبتمانيا، وزحف على أربونة قاعدة الثغر الإسلامي القديم، وقد فتح المسلمون خلال تلك الغزوة أربونة[٢].

وكان شارلمان (أو كارل الأول) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بمحاربة خصومه السكسونيين بعيداً عن فرنسا، فتأهب ولده لويس أمير أكوتين لصد العرب، وأوفد لمحاربتهم جيشًا بقيادة چيوم كونت دي تولوز؛ فالتقى الفريقان في مكان يُسمى «ڤيل دفي» على ضفاف نهر أوربنيا بين أربونة وقرقشونة، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة، ارتدّ المسلمون على أثرها إلى الجنوب مثقلين بالغنائم والسبي، وقدرت أخماس السبي وحدها بخمسة وأربعين ألفًا من الذهب، وأرغم الأسرى النصارى على حمل أو جرّ أحمال من الأحجار والتراب من سور أربونة حتى قرطبة، وأمر هشام أن يُبنى منها جناح جديد للمسجد الجامع؛ تخليداً لتلك الغزوة الشهيرة.

وفي ربيع سنة (١٧٩هـ - ٧٩٥م) سيّر هشام إلى جليقية حملة أخرى بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، أخي الحاجب؛ فاخترق المسلمون مفاوز جليقية حتى استرقة، ففرَّ السكان النصارى إلى رؤوس الجبال، وتأهب ألفونسو ملك جليقية للقاء المسلمين، على رأس جيش من الجلالقة وحلفائهم البشكنس،

---

(١) «دولة الإسلام» د/عنان. ق١ - ع١ (ص٢٢٧).

(٢) ابن الأثير (جـ٦ ص٤٥).

ونشب القتال بين الفريقين في قاصية جليقية، في المكان المعروف بالصخرة، وانتصر الجلالقة في البداية في بعض الوقائع المحلية، وقُتل جماعة من المسلمين في كمين دُبّر لهم، ولكن النصارى هزموا في النهاية، وعاث المسلمون في جليقية، وأصابوا كثيراً من الغنائم، ثم ارتدوا إلى الجنوب بعد أن مزقت قوى الجلالقة وسكنوا إلى حين، وساد الأمن في الولايات الشمالية[١].

كانت هذه آخر غزوة غزاها هشام، إذْ توفيَ عقب ذلك بقليل في (الثالث من صفر سنة ١٨٠هـ - ١٨ أبريل سنة ٧٩٦م)، وكان في نحو الأربعين من عمره بعد أن حكم نحو ثمانية أعوام.

ونلاحظ من هذه الغزوات أن الأمير هشام استطاع أن يُرغم النصارى على الوقوف عند حدودهم؛ فقد كانوا برغم ضراوتهم في القتال، واستبسالهم وشجاعتهم عاجزين عن وقف الأمير هشام عند حد، وعاجزين أيضًا عن ردّه عن تنفيذ خطته التي رسمها لوقف هذه المؤامرات، وتامين حدود مملكته.

ففي خلال السنوات الخمس، استطاع أن يشن على نصارى أوروبا غزوات متتالية، استولى فيها على أراضيهم، ولم تنجُ العاصمة (أوفييدو) من الاحتلال برغم التحالف الكبير الذي استطاع ألفونسو الثاني أن يتمتع به، والذي لم يمنع من احتلال المسلمين لتلك العاصمة وتخريبها، وإلقاء الرعب والفزع بين سكانها، حتى استكانوا وخضعوا للمسلمين راضين أو مكرهين.

(١) ابن الآبار في «الحلة السيراء» (ص٧٢)، و«البيان المغرب» (جـ٢ ص٦٦).

هشام الإنسان ورجل الإنجازات

ذخرت بلاد الأندلس في عهد هشام بإصلاحات كثيرة، وإنشاءات فخمة، ومن هذه الإنشاءات: المسجد الجامع بقرطبة، الذي أنشأه أبوه عبد الرحمن وتوفي قبل أن يتمه، فقام هشام بإتمامه، والمسجد واقع في مساحة ضخمة طولها (٦٠٠) قدم، وعرضها (٢٥٠) قدم، وهو يضم (٣٨) قوسًا عرضًا، و(١٩) قوسًا طولاً، وهذه الأقواس ترتكز على أعمدة رخامية فخمة، يبلغ عددها (١٠٩٣) عمودًا، وتُعتبر قبابه بالنقوش الجميلة الرائعة، آية في حسن الذوق، والفن الجميل، ويُضاء المسجد بأربعة آلاف وسبعمائة مصباح، يستخدم في إيقادها أربعة وعشرون ألف رطل من الزيت في العام الواحد.

كذلك كان يستهلك مئة وعشرون رطلاً من العنبر والطيب، حتى تشيع في أرجاء المسجد الرائحة الذكية، ومشكاة المحراب تُعتبر أكبر مصابيحه، وكانت مصنوعة من الذهب الخالص، تُزيّنها النقوش والزخارف الجميلة.

وأما أبواب المسجد فهي تسعة عشر باباً، تغطيها طبقة من البرونز المنقوش، ويقع الباب الرئيسي في الوسط، وهو محلى بقطع من الذهب التي تغمر وجهه، وعلى جانبيه تقع الأبواب الأخرى: تسعة عن يمينه، وتسعة عن شماله، و لا تزال آثار المسجد باقية إلى الآن، تشهد بعظمة الفن الإسلامي.

وقد أضاف هشام إلى جانب ذلك كله، أشياء لا يستغني عنها المسجد، حيث بنى سقيفة خاصة لتصلي فيها النساء، وبنى الميضاة في شرقي المسجد، وأقام المئذنة.

ولم يكن هذا المسجد محل اهتمام الأمير هشام وحده، بل إنه أمر بعد إتمامه

وإكماله ببناء مساجد عدّة في أنحاء الأندلس، وهذا يدل على تدينه وورعه، بحيث كانت الإصلاحات الدينية تغلب على تصرفاته، ومن ذلك المسجد الذي بناه أمام باب الجنان، والذي بناه بالحجارة والتراب الذي سقط من سور أربونة، وأمر أهل البلاد النصارى تصغيراً لهم واحتقاراً أن ينقلوا أحمالاً منه إلى باب قصره بقرطبة»(١).

ولم يقتصر اهتمام هشام بالعمارة الدينية فقط، بل كان يعني بالعمارة المدنية كعمارة قنطرة قرطبة على نهر الوادي الكبير، وكان والي قرطبة في عهد عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - السمح بن مالك، قد بناها بأمر من الخليفة، وكانت قبل ذلك قنطرة رومانية، قد تهدّمت فأقامها السمح، وبناها من الطوب المحروق (الأحمر) (١٠١هـ - ٧٢٠م) ولكنها لم تلبث أن هُدمت مرة أُخرى (١٦٢هـ - ٧٧٩م)، وظلت هكذا حتى عهد الأمير هشام الذي بذل عناية كبيرة في إعادة بنائها تحت إشرافه، وقد وصفها المؤرخون ومنهم المقري وصفاً رائعًا يدل على روعتها، فقال:

«والقنطرة التي عند هذا النهر عند قرطبة من أعظم آثار الأندلس، وأعجبها، وأقواسها سبعة عشر قوسًا».

ويقول نقلاً عن ابن حيان: «إن قنطرة قرطبة إحدى أعاجيب الدنيا، وطولها ثمانمائة ذراع، وعرضها عشرون ذراعًا، ويمدد حناياها ثمان عشرة حنية، وعدد أبراجها تسعة عشر برجًا»(٢).

وقد أمر هشام ببناء نافورة في العاصمة قرطبة لتزيينها وتحسينها، واختار لذلك أحد الميادين العامة، وكانت النافورة قطعة فنيّة نادرة، وتُعرف هذه النافورة

(١) «نفح الطيب» للمقري، وانظر «الأمويون أمراء الأندلس» (ص١٧٧).

(٢) المصدر السابق (ص١٧٧).

(بعين فرقد) نسبة إلى بانيها فرقد العدواني القرطبي، وبلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة، وازدحام الناس مبلغًا لم تبلغه مدينة.

ويذكر ابن فيّاض في «أخبار قرطبة» قوله: «كان بالربض الشرقي من قرطبة مئة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصحف بالخط الكوفي في ناحية من نواحي قرطبة».

وفي المعجب في «أخبار المغرب» يقول صاحبه «وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها: أن الماشي كان يستضيء بسروج قرطبة ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء»[١].

وقرر هشام جعل اللغة العربية لغة التدريس في معاهد النصارى واليهود، وقد هدف من ذلك التقريب بين المسلمين والنصارى، وخلق روح التفاهم بين أصحاب الأديان المختلفة، وتعريفهم بسماحة الإسلام وشرائعه.

وكان هشام شديد الورع والتقوى، وكان شغفه بالجهاد وإعلاء كلمة الدين من أخص مظاهر تقواه، وكان يُنفق الأموال الطائلة في افتداء أسرى المسلمين، حتى لم يبقَ في عهده أحد منهم في قبضة العدو، ويرتب في ديوانه أرزاقًا لأُسَر الجند المتوفين في الجهاد[٢].

(١) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» تحقيق/ محمد سعيد العريان (ص٤٥٦).

(٢) «أخبار مجموعة» (ص١٢٠).

مذهب الإمام مالك في الأندلس

كان هشام يُؤثر مجالس العلم والأدب ولاسيما الحديث والفقه على غيرها، وفي عصرٍ ذاعَ فيه مذهب الإمام مالك.

وكان هناك إعجابًا متبادلاً بين الإمام مالك إمام دار أهل الهجرة والأمير هشام ابن عبد الرحمن الداخل، فلما وصل زياد بن عبد الرحمن، ووصف هشامًا للإمام مالك أُعجِبَ به، وتمنّى أن يُزيّن الله موسم الحج بهشام فقال: «ليت أنّ الله – تعالى – زيّن موسمنا بمثل هذا»[1].

وأما هشام فقد بلغه ثناء الإمام عليه، وتمنيه ما تمنى، أحب الإمام، وقرب الذين ينتسبون إلى مذهبه، وعيّنهم في الوظائف العامة، وجعلهم خاصته والمقربين إليه.

هذا الإعجاب المتبادل، سهّل للمذهب الدخول إلى الأندلس، والاستقرار فيها، ولم يكن دخول المذهب إلى الأندلس في عهد هشام، ولكنه سبق ذلك بكثير، نعم إنه دخل إلى الأندلس في عهد الإمام مالك نفسه، كان أصحاب المذهب مبثوثين في نواحي الدولة المختلفة، فكان أبو حنيفة في العراق، والأوزاعي في الشام، وكان أرباب كل مذهب يحاولون بثه ونشره في كل مكان ينزلون فيه، ولكن المذهب الحنفي كان بغيضًا ومكروهًا عند الأمويين؛ لأنه مذهب خصومهم العباسيين؛ لهذا كان عبد الرحمن الداخل، يُقرِّب مذهب الإمام الأوزاعي الشامي، وكان يتعامل معه على أنه المذهب المعترف به رسميًا، فقد كانت الشام مقر الخلافة الأموية، وليكن ما يأتي منها حبيب إلى كل أموي، وظلت الولاية في عهد عبد الرحمن للمذهب الأوزاعي.

---

(١) «نفح الطيب» (١/٣٣٧).

وظهر مذهب الإمام مالك في المدينة المنورة، وأقبل عليه كثير من أهل الأندلس يدرسونه على يدي الإمام، ويتفقّهون في الدين على مذهبه، ولما بلغ الأمير هشام إعجابه به، بذل كل جهده لنشر المذهب المالكي، وكان يمنح كل التسهيلات لمن يريد دراسة هذا المذهب، فيسهل له السفر إلى المدينة المنورة، ويُعينهم في نفقات السفر، وحالة الإعاشة، ومن عاد منهم يتخير الأمير منهم القضاة، ومن يعينهم في الوظائف العامة.

وفي ظل ظهور مذهب الإمام مالك لم يستطع صعصعة بن سلام الشامي، الذي كان يشغل منصب الإفتاء وصاحب الصلاة في قرطبة، أن يصمد أمام المذهب الجديد الزاحف على الأندلس، فقد كانت تساند المذهب الجديد قوّتان[١]:

الأولى: هي وجود أحفاد الأنصار الذين كانوا يتمتعون بعادة التمسك بالتقاليد، ويغلبونها على أي شيء سواها، فهؤلاء اتخذوا مذهب مالك مذهبًا لهم، وعكفوا على الموطأ يدرسونه ويتعاملون به، كإرثٍ من ميراث مدينتهم، وظاهرة حضارية من المظاهر التي كانوا يعتنقوها بالعادة.

الثانية: أما القوة الثانية التي كانت تُساند مذهب الإمام مالك فهي هؤلاء الدارسون الذين ذهبوا إلى المدينة، وتحملوا مشاق السفر، وظلوا في الغربة يُعانون من فراق الأهل والوطن، حتى حملوا هذا العلم، ورجعوا به، ويؤيد هؤلاء الأمير هشام حاكم الأندلس.

وفي السنوات التي تلت موت الإمام مالك، بقى أناس من الأندلسيين يُتابعون دراسة مذهبه، منهم: زياد بن عبد الرحمن (شبطون) وعيسى بن دينار، والفقيه القرطبي المعروف بيحيى بن يحيى، ويحيى بن مضر.. هؤلاء هم الذين عرَّفوا

---

(١) «الأمويون في الشرق والغرب» د/ الوكيل (جـ٢ ص١٨٣).

الإمام مالك بحاكم الأندلس حينئذ، وذكروا له صفاته وأخلاقه حتى أُعجب به الإمام مالك، وهؤلاء عادوا جميعًا إلى الأندلس، وكانوا خير دعاة لهذا المذهب الذي حملوه من المدينة المنورة.

وأول من أدخل مذهب مالك بن أنس إلى الأندلس، هو أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون، وكان قد رحل إلى المشرق بعد عام واحد من إمارة هشام، وذهب إلى المدينة، وأخذ العلم عن الإمام نفسه، وشبطون هذا هو أول من أدخل موطأ مالك إلى الأندلس كاملاً[١].

وأخذ عنه الفقيه يحيى بن يحيى، وأشار إليه زياد أن يذهب إلى مالك مادام حيًّا ففعل، وذهب إلى مالك وسمع منه الموطأ، كما سمع بمصر من الليث بن سعد، وعبد الرحمن بن القاسم، وسمع بمكة من سفيان بن عيينة.

وعندما عاد يحيى بن يحيى الليثي إلى الأندلس، بذل جهده في نشر مذهب الإمام مالك، وتولى الرئاسة في الفقه والقضاء، ونال مكانة سامية لدى الأمير، وأصبح إمام عصره[٢].

(١) «الديباج المُذهَّب» لابن فرحون المالكي (١/ ٣٧٠).

(٢) «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» (ص٢١٩)

وداعاً الأمير هشام

ظلَّ هشام مجاهداً، ولم تمنعه عقيدته الخالصة لله من أن يختار خليفته من بعده، فأرسل الكتب إلى الولاة والوزراء، وحكام الولايات، وكتابها، والحاجب والقضاة ورئيسهم، فاجتمعوا عنده، وأخذ البيعة لابنه الحكم، وكان ذلك في عام (١٧٩هـ - ٧٩٥م) أي تمّ ذلك قبل وفاته بعام واحد، وكان عُمر الحَكَم آنذاك اثنين وعشرين عاماً.

وظلّ هشام يُدرب ابنه الحكم وليّ عهده على أعمال الحرب، والغزوات، فيوليه قيادة الجيوش، ويدربه كذلك على الحُكْم، فيوليه ولاية طليطلة، ولا يتوقف عن النصح له طيلة السَّنَة التي عاشها بعد أخذ البيعة لابنه ووليّ عهده، ويزجي إليه من علمه وحكمته؛ لكي يسوس البلاد، فكان يقول له:

« يا بنيّ يجب ألاّ تنسَ أن الملك لله يُعطيه لمن يشاء، ويأخذه ممن يشاء، وقد منحنا الله السلطة، ووضع في أيدينا صولجان الملك، برحمته الواسعة، فعلينا أن نقدم له الحمد والشكر على نعمائه، وأن ننفّذ إرادته بالمعاملة الطّيّبة لكل النّاس، خاصة أولئك الذين يلجؤون إلينا طالبين حمايتنا؛ كنْ عادلاً سويًا مع الفقراء والأغنياء، ولا تترك للظلم سبيلاً إلى دولتك؛ فالظلم طريق الضياع، وكن في ذات الوقت رحيماً عطوفًا على من يعتمد عليك، فكلهم خلق الله ».

ثم يوصيه ألاَّ يَدَعَ عقاب الوزراء والحكام الذين يميلون مع الهوى، ولا يعدلون في شعبه، ويوصيه بأن يكون معهم حازمًا قويًا، ويوصيه بكسب حب الشعب؛ لأن في تعاطفهم أمان للدولة، وفي خوفهم يكمن الخطر، وفي كرههم يكمن الانهيار المحقق[١].

---

(١) «الأمويون أمراء الأندلس» (ص٢٠٤).

ويوصيه بالفلا-ين؛ لأنهم الذين يعملون ليوفروا قوتَ الشعب الضروري.

وأخيراً يختم هشام نصائحه بقوله: وعلى الجملة، فاحكم بطريقة تجعل ألسنة شعب تلهج بشكرك، وهم يعيشون سعداء في ظل حمايتك وعطفك، يجنون مباهج الحياة في ثقة وهدوء، ففي كل هذا يكون الحكم الصالح، فإذا استطعت تحقيق ذلك كنت سعيداً، وجنيتَ الشهرة كأعظم أمير في العالم[١].

وقد توفي الأمير هشام الداخل في عام (١٨٠ هـ في شهر صفر)، لسبع سنين، - وقيل لثمان - من إمارته، رحم الله الأمير هشام، فقد مات وعمره أربعون سنة وأربعة أشهر[٢].

(١) المصدر السابق (ص٢٠٥).

(٢) «نفح الطيب» (١/ ٣٣٨).

أهم المصادر والمراجع

١ – الكامل – لابن الأثير ط صادر.

٢ – نفح الطيب – للمقري.

٣ – جذوة المقتبس – للحميري.

٤ – تاريخ الطبري ط دار إحياء التراث بيروت.

٥ – دولة الإسلام في الأندلس – د/ عبد الله عنان – مكتبة الخانجي، مصر.

٦ – البيان المغرب – لابن عذاري المراكشي.

٧ – الخلافة الأموية – عبد المنعم الهاشمي – دار ابن حزم – بيروت.

٨ – الخلافة العباسية – عبد المنعم الهاشمي – دار ابن حزم – بيروت.

٩ – فجر الإسلام – د/ حسين مؤنس.

١٠ – الإسلام في الأندلس – رينهرت دوزي – ط هيئة الكتاب مصر.

١١ – تاريخ ابن خلدون – ط الأفكار الدولية.

١٢ – تاريخ افتتاح الأندلس – لابن القوطية.

١٣ – تاريخ المغرب – د/ حسين مؤنس.

١٤ – أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس.

١٥ – الإحاطة لابن الخطيب.

١٦ – تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس – د/ عبد العزيز سالم.

١٧ – تاريخ أوروبا في العصور الوسطى. تأليف هـ.أ.ل فيش –ط٣– دار المعارف.

١٨ – قصة الحضارة – وول ديورانت.

١٩ – فتوح مصر وأخبارها – لابن عبد الحكم.

٢٠ – الروض المعطار.